

حول الأهمية الأثرية لمكتشفات ابلا - تل مردوخ

د. عدنان البني

المديرية العامة للآثار والمتاحف - دمشق

ان الأهمية الكيفية والكمية للرقم المسماة المكتشفة في القصر الملكي في ابلا - تل مردوخ ، العائدة للآلاف الثالث قبل الميلاد ، وإساءة تاويل محتوى هذه الرقم ، ومن ثم إساءة استعمال ذلك المحتوى ، قد أثارت انتباه العالم ، حتى الصحافة اليومية في الشرق والغرب ، الى جانب وحيد من مكتشفات ابلا هو تلك الرقم المسماة . فأصبحت هذه الرقم بالنسبة للبعض كالعقل الالكتروني فيها جواب لكل سؤال . وبالنسبة البعض الآخر أصبحت رؤيا من رؤى الثورة . وادلى الكثيرون بدلوهم بين الدلاء ووجدوا الحلول على كل الأصعدة ، وجلهم أهمل الجانب الأثري البحث لمكتشفات ابلا ، ولم يتصد له الا بعثة التنقيب نفسها وقلة من المختصين العرب والاجانب .

وخلال السنوات العشر التي انقضت بين استهلال التنقيب الأثري في تل مردوخ واكتشاف محفوظات ابلا ، وخاصة في السنوات الخمس الاخيرة ، تحققت مكتشفات أثرية صرفة وذات أهمية علمية باهرة ولكنها مرت غالبا دون ان تلفت انتباه احد تقريبا ، حتى في الأوساط الأثرية .

ولسنا ننوي في هذا البحث او ندعي اصلاح هذه الحال ، بل كل ما نبتغيه ان نلقي بعض الضوء على الناحية الأثرية من مكتشفات ابلا ، منوهين بهذه المناسبة بالمشاورة التي تتحلّى بها بعثة التنقيب الإيطالية ورغبتها في الاسراع بتزويد العالم والجمهور الواسع بثمرات جهودها (١) .

(١) بحث التي بجامعة روما ، في ختام الندوة العالمية التي عقدت حول مكتشفات تل مردوخ - ابلا ، في باريس ١٩٨٠ .

ان تل مردوخ الذي يبلغ طوله ١١٠٠ م ومساحته ٥٦ هكتارا ليس تلا من اضمخ التلال الاثرية في سورية فحسب ، بل هو من احسنها موقعا ، لكونه في منتصف الطريق بين الفرات والبحر الابيض المتوسط . وهو خير مكان يشكل استجابة لكل بحث اثري يستهدف خاصة ماضي القطر العربي السوري في تلك العصور الموهلة في القدم والتي مازلنا لا نعرف عنها الا القليل .

وفي هذه الركامات السعيدة التي تكون تل مردوخ يتتبع الباحث خلال الف عام (من حوالي ٢٥٠٠ الى حوالي ١٦٠٠ قبل الميلاد) (٢) دور بلاد الشام وعطائها في مطلع عهد نشأة المدن ومن ثم في عهد السلالات الامورية الاولى . واذا كان بعض هذا الدور معروفا جزئيا فان الملاحظ ان هناك انتقاصا من اهميته .

ان المكتشفات الاثرية في تل مردوخ قد زودتنا حتى قبل العثور على المحفوظات الملكية ، ومن ثم بعد العثور عليها ، بمعلومات وافرة عن فن عمران المدن في سورية خلال الالف الثالث قبل الميلاد وكذلك عن عمارة القصور والمعابد في الالفين الثالث والثاني قبل الميلاد . كما ان تلك المكتشفات الاثرية كانت بالغة الفائدة في معرفة بعض الفنون والحرف السورية ، كالنسيج والصباغة والتنزير والنقش والنحت والفخار ، خلال تلك القرون المعتمدة . كما انها القت ، بشكل غير مباشر ، الضوء على العلاقات الاقتصادية ، وعلى طرق المبادلات والتجارة بين سورية والاقطار المجاورة ، بما في ذلك مصر .

ولم يكن موقع تل مردوخ جديرا بالثقة لو لم يقيض له تنقيب ستراتيغرافي دقيق ودراسة منهجية . ان نتيجة هذه المنهجية هي الوصول الى تقويم راسخ علميا موثق اثريا لسويات التل . فاكشاف اجزاء من اناء مصري في القصر الملكي العائد للالف الثالث يحمل كتابة تعود للفرعون المصري بيبي الاول ، هو دعم للتأريخ الذي كان قد قدمه الاستاذ ماتيه للسلالة الملكية في ابلا ، ودافع عنه في مناسبات عدة . اذ ان العلماء يجمعون على ان بيبي الاول حكم فترة تمتد من عهد سرجون الاكادي الى عهد حفيده نارمسين . وبالنسبة لبعض الاحداث اصبحنا بفضل المكتشفات الاثرية لتل مردوخ ، نمتلك تواريخ مطلقة تسهل لنا مهمات التأريخ الصعبة في مواقع اخرى . اذ اننا نرى في هذا الموقع « تطابقا بين تاريخ ابلا الذي نعرفه من المصادر القديمة وتاريخ طبقات تل مردوخ التي ظهرت في التنقيب » (٣) . وهذا الامر لم يسهل انشاء تقويم فحسب ، بل سهل ميلاد مصطلح اثري خاص بسورية ، مستقل عن

المصطلح الرافدي او المصري ، اللذين كانا يطبقان عليه(٤). اذ ان الافاق الاترية ، اي السويات ، موسومة باحداث تاريخية :

فسوية تل مردوخ المسماة(IIB₁) التي تعود للطور (أ) من عصر البرونز القديم الرابع ، والمؤرخة من حوالي ٢٤٠٠ الى حوالي ٢٣٠٠ - ٢٢٢٥ قبل الميلاد ، تعادل عهد سلالة ابلا الملكية .

وسوية تل مردوخ المسماة(IIB₂) التي تعود للطور (ب) من عصر البرونز القديم الرابع ، المؤرخة من حوالي ٢٢٢٥ الى حوالي ٢٠٠٠ قبل الميلاد ، يقع في نهايتها قيام السلالة الامورية في ابلا .

وهاتان السويتان تقابلان كأفق اثري ، مبدئيا ، السوية (I) والسوية (J) في سهل العمق ، واجمالا السوية (J) في حماة .
ثم ان سوية تل مردوخ المسماة(IIIA) ، التي تعود للطور الاول من عصر البرونز الوسيط ، والمؤرخة من حوالي ٢٠٠٠ الى حوالي ١٨٠٠ قبل الميلاد ، تعادل عهد السلالة الامورية في ابلا ، وكذلك السوية (H) في حماة .

واخيرا ان سوية تل مردوخ المسماة(IIIB) تنتهي حوالي ١٦٥٠ او ١٦٠٠ ، وتقابل قيام الحثيين بالهجوم على ابلا .

وهذه التواريخ اكدتها ، فضلا عن ذلك ، المكتشفات الحديثة في تل مردوخ التي تضم هدايا من عهد الفرعون خفرع من السلالة الرابعة ، والفرعون بيبي الاول من السلالة السادسة كما اسلفنا(٥) ، وأخيرا الفرعون حوت رع الذي حكم في فترة ما بين ١٧٧٠ - ١٧٦٠ ق.م .

ومهما كان موقفنا من مسائل التقويم في الشرق فلا بد من ان نعطي لهذه المكتشفات المصرية في ابلا قيمتها التاريخية البالغة ، نظرا لما تقدمه من ايضاحات من اجل تقويم ابلا ، ومن اجل الجدل الزمن حول التقويم الرافدي القصير والطويل (٦) .

وبعد هذه الايضاحات الخاصة بالتقويم ، فان مكتشفات تل مردوخ - ابلا قد اثارت لدى العلماء اتجاهين ، فبعضهم يشد ابلا نحو الرافدين وينزع احيانا حتى الى احتواء سورية الشمالية القديمة كلها في المجموعة الرافدية(٧) ، والبعض الاخر

يبالغ في الإلحاح على الإصالة السورية منذ أقدم العصور المعروفة ومنهم الاستاذ ماتييه نفسه. لكن المرء ينسائل : اين كانت الحدود الجغرافية الخاصة بسورية في عصور البرونز (الالفين الثالث والثاني قبل الميلاد) ؟ . من الواضح ان ذلك ينطبق على المنطقة المعروفة ببلاد الشام لدى العرب جميعا ، أي الشريط الذي يمتد غربي الرافدين من الامانوس الى سيناء ، والذي يضم الاياض ويمحاذ واوغاريت وابلا وحماة وقطنا (تل الشرفة بجوار حمص) ودمشق والمواقع الهامة من فلسطين . واننا لنجد في هذه المواقع تجانسا كبيرا يتحكم به الوضع الجغرافي ، والدور التجاري ، والمبادلات الاقتصادية . على ان هذه العوامل نفسها تكون هذا التجانس برافدهات ثقافية تعدل تلك الخصائص التي تميز بها هذا الشطر الشامي من الهلال الخصيب (٨) . وفي اعتقادنا ان بلاد الشام تأصلت خصائصها المميزة تلك مع انسياب الاموريين - الكنعانيين من الجزيرة العربية وتأسيس ممالكهم اعتبارا من مطلع الالف الثاني قبل الميلاد .

وعلى اية حال ان ما تقدم يبدو لنا صحيحا في ضوء ما لدينا من معلومات حتى الان . على ان الحقيقة التاريخية هي محصلة صعبة جدا ، فالحدود السياسية القديمة والحديثة والسلالات ، واحيانا اللغات المكتوبة ، تشوشنا في موضوع الاصل والانتماء.



في هذا السياق العام ، تبدو لنا ابلا اهم مركز مدني سوري في الالف الثالث قبل الميلاد ، مدينة تجارية كبرى تعقد مع العالم المجاور صلات اقتصادية وسياسية واحيانا حربية . ولا بد ان نفوذها كان كبيرا ، ولكن اراضيها لم تشكل ابدا امبراطورية كبرى (٩) .

وان الميل للمبالغة المفرطة في امتداد تلك الامبراطورية بالاستناد الى تأويل خاطيء للنصوص (١٠) هو في خطورة التقليل من دور ابلا (١١) .



وعلى الضفة اليسرى من الفرات الاوسط ، اعطينا ، مؤخرا ، مواقع كثيرة اثارا من عصر البرونز القديم (٢٩٠٠ - ٢٠٠٠ ق.م) ، ومنها تل شمس الدين الغربي ، تل العبد ، تل ممباقة ، تل الجفلة (قرب تل طاوي) وتل حلاوة الجنوبي . الخ. تلك المواقع التي شملتها حملة انقاذ اثار الفرات قبل انتهاء السد وتشكل بحيرة الاسد (١٢)

والامر نفسه في موقع « ابو ضنة » قرب حلب حيث اظهر لنا سبر طبقي واسع سوراً ضخماً من عصر البرونز القديم ايضاً . وذلك كله يضاف لما كنا حصلنا عليه في اسبار اوغاريت وحفريات سهل العمق وحفريات حماة . ولكن ، في هذه الافاق الاثرية كلها ، لا يوجد - اثرياً - مايوازي تل مردوخ الذي يبقی ، وربما لوقت طويل ، خير مصدر لنا عن الثقافة المادية والفكرية في سورية الشمالية خلال النصف الثاني من الالف الثالث قبل الميلاد . ومع ذلك فان ثمة مسألة تتطلب الحل وهي عدم وجود سابقات معروفة حتى الان تسهل معرفة اصول العمارة وفن التخطيط المدني في ابلا . ويتساءل المرء ابن نشأ وتطور ما يسمى لدى الاستاذ ماتيه بالمفهوم السوري لعمارة القصر في ابلا؟ (١٣) وهل نأمل ان نجد النموذج الاقدم لهذا القصر في اكروبول المدينة نفسه؟ ، أم يجب ان نفتش عنه في مكان آخر؟ (١٤) .



وتبقى اخيراً نقاط اخرى نأمل ان نجد جواباً لها في معاول المنقبين بتل مردوخ ، وعلى رأس تلك النقاط معرفة ابلا بشكل افضل خلال عصر البرونز في اطواره الاول والثاني والثالث ، والفترة ما بين احتلال المدينة من قبل نارمسين ، وتأسيس السلطة الامورية في ابلا . ثم اننا نتمنى ان نصل الى صورة اكثر واقعية لابلا التي احتلها تحوتمس الثالث (١٥) . وليس هذا من قبل الامل فحسب ، لان تل مردوخ - ابلا عودتنا على المفاجات الاثرية الطيبة . فما كاد العالم يستفيق من مفاجأة المحفوظات الملكية حتى بهرته روعة التحف الامورية (٦) في قبور الامراء ، في قصر الالف الثاني .

وختاماً ، فان ابلا التي يرى فيها البعض امبراطورية منقوشة على الطين (١٧) ، هي بالنسبة للعالم الاثري نبع اثري لا ينضب معينه .



الحواشي :

(١) هذا الامر معترف به دوليا . وقد نوه به العالم المتصف ر.بيفس في مقاله الشهير عن أبلا

ورقمها راجع :

R. BIGGS, The Ebla Tablets, Biblical Archaeologist, 43/2, Spring 1980, P. 85.

(٢) وثمة عهود أخرى في الطبقات العليا من عصر الحديد ، وحتى من العصور الرومانية والبيزنطية والعربية الإسلامية ، إذ نجد كتابات أموية تذكارية منقوشة على جدران البوابة الجنوبية الغربية .

P. MATTHIAE, Le palais royal et les archives d'état d'Ebla proto-syrienne, (٣) Akkadica 2, Mars/Avril 1977, p.3.

(٤) على أن هذا المصطلح الخاص بسورية يحتاج لبعض التعديل وقد نمود له في مناسبة أخرى .

G. SCANDONE - MATTHIAE, Vasi iscritti di Chefred e Pepi I nel (٥) Palazzo Reale (G) di Ebla, « Studi Eblaïti », I. 3/4, p.33-43.

(٦) في داي لينسكي أن مكتشفات تل مردوخ ثلاثم التقويم القريب . راجع مقاله في المجلة التالية : « Akkadica », 14, (1979), p. 46-47.

(٧) راجع على سبيل المثال : G. BUCCELLATI and M. KELLY BUCCELLATI, « Syro-Mesopotamien Studies. », (May 1977) p. 1 - 2.

(٨) ومن ذلك أن الآثار الأكادي واضح في أعمال النحت والمنقوشات الابلية (المعائم « والبروكات » والوجوه وتنزيل الميرون ، وكذلك مواضيع الاختام الاسطوانية) .

(٩) راجع : A. ARCHI, Ebla according to tests.

وهو عنوان محاضرة القاها في حلب عام ١٩٧٨

A. ARCHI, Notes on Eblaite Geography, « Studi Eblaïti », II/1, 1980 (١٠)

H. KLENGEL, the Archives of Ebla and Syrian History, Problems and Effects, colloquium on Ebla, Roma, May, 1980.

(١٠) مثال ذلك ما ذهب اليه بيتناتو في مؤلفه التالي :

G. PETTINATO, Ebla, Un impero incisa nell argilla, Milano 1979, p. 111.

- (١١) مثل ذلك المؤلف التالي الذي يجعل من ابلا دولة مدنية صغيرة فحسب :
CH. BARMANT und M. WEITZMANN, Ebla, Neu entdeckte Zivilisation in
alten Orient, Frankfurt, 1979, p. 136.
- (١٢) راجع دليل معرض آثار الفرات (حلب ١٩٧٤) ، والحواليات الاثرية العربية السورية (العدد ٢٥)
ومجلة AASOR الامريكية - عدد ٤٤ عام ١٩٧٧ - وابحاث ندوة آثار الفرات الاوسط
(ستراسبورغ ١٩٨٠) .
- P. MATTHIAE, « akkadica », 2, p. 9. (١٣)
- (١٤) يقول روبرت بريموود منقب سهل العمق ليس لدينا دليل واحد من حفريات حماه وسهل العمق
على وجود هندسة معمارية في سورية في طور حماه (I) والعمق (J, I) راجع مؤلفه :
Plain of Antioch, l'p. 533.
- (١٥) حاليا تعتقد البعثة الايطالية انها كانت في ذلك الوقت حفلا من الاطلال مع بعض مساكن على الاكروبول
P. MATTHIAE, Akkadica, 2, 1977, p. 4.
- راجع :
P.MATTHIAE, Two Princely tombs at tell Mardikh-Ebla, «Archaeology» (١٦)
vol. 33/2 (1980) p. 9s.
- (١٧) اشارة الى كتاب بيتناتو ابلا امبراطورية منقوشة على الطين المذكور في الحاشية رقم ١٠ من هذا المقال.

